

كيفن كارتر وصوت الضمير
دراسة سيميائية للصورة التي أبهرت العالم

Kevin Carter and the Voice of Consciousness

Semantic study of the image that has astonished the world

قاسمي الحسني عواطف*

تاريخ القبول 2018/10/30

تاريخ تقديم البحث 2018/05/05

Abstract

It is the image that has astonished the world; an image that became the symbol of all images in the past over twenty years.

Not only reality of its extras is symbolic whatever distinct are their race, color of skins, reasons of their famine, but the image also contrasts the back scene of nowadays silent world steadying mute over these kinds of issues.

It is true that is not a clear part of the image, however the said image has unmasked...the said world till it almost was visual. It is the human consciousness, absent in this reality but very present in this image.

Human consciousness what Kevin Carter tried vainly to reach up and capture in that memorable scene of "a weak little girl and fierce predator"

The photojournalist seems taking thousands and thousands images of that absent human consciousness...

ملخص

إنها الصورة التي أبهرت العالم، والتي تحولت بعد أكثر من عشرين عاما إلى الصورة الرمز، وهي لا ترمز فقط لواقع أبطال الصورة مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم، وحروبهم، وأسباب مجاعاتهم، بل إنها تعكس الخلفية؛ خلفية العالم الصامت الذي يقف ساكنا أمام مثل تلك القضايا، صحيح أنه ليس جزءا من الصورة، لكن الصورة فضحته حتى كدت تراه، إنه الضمير الإنساني الغائب في الواقع، الحاضر في الصورة، إن الضمير الإنساني هو ما كان كيفن كارتر يحاول الوصول إليه ليلتقط له الصورة، بل إنه في تلك المفارقة الطبيعية العجيبة والمواجهة الصامتة بين الطفلة والنسر، نراه يلتقط للضمير الإنساني الغائب ألف صورة وصورة.

*قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة المدية، الجزائر .

مقدمة

"لا تفكر الروح أبدا من دون الصور"¹ هكذا كان يقول أرسطو، فالصورة الذاكرة المرئية للشعوب، والواقع المرئي للأمة، والضمير الحي الذي يخاطب الوجدان في خطاب صامت، وفي صمت ناطق، وعصرنا اليوم عصر الإعلام والتجارة بالصورة²، ومجتمعنا باتت تغلب عليه المادة والطابع الحسي الحركي، أكثر من البعد التأملي المجرد الذي طغى على عصر أفلاطون وأرسطو؛ ومع هذه الحقيقة التي تقترب منها مجتمعاتنا، إلا أن داخل الصورة ألف صورة وصورة تحكي عن عوالم معاصرة مازالت ترسم بفنها وحسها واقعا ومستقبلا يقترب من العمق الروحي والوجداني للإنسان، فليست الصورة المعاصرة دوما مادة للتجارة، والصناعة الوهمية، فهي في الاتجاه المقابل صانعة للضمير الواعي، وعملية إحياء للذاكرة والفكرة والارتقاء بالروح والفكر معا.

إن تاريخ الصورة تاريخ طويل، بطول الامتداد الزمني للحركة الفكرية للعقل الإنساني³، منذ راح يخط تاريخ ميلاده بحضارته الحجرية، وفتونه الأثرية، ولنا في حضارة الطاسيلي أو ما يعرف بمسرح الهواء الطلق خير دليل ومثال⁴، والصورة كما تشهد الميلاد تشهد لعبة الموت في الأرض، وكما أرخت للإنسان في العصر الحجري، تؤرخ له في عصره الذهبي حيث يغزو الفضاء، وأصبح عصره عصر الأقمار الصناعية، إنها صناعة الصورة وصناعة الواقع من خلال الصورة، ومع هذا تبقى الصورة أصيلة ناطقة ومفجرة للواقع، تحاول تصويره وتنويره، لتقلب أبعدياته، إذا كان صانعها صاحب فكر ووعي وضمير، صاحب فن وإحساس، مثل كيفن كارتير، فليست القضية في ماهية الصورة، بل في صناع المشهد قبل صناع الصورة، فما الصورة اليوم إلا جزء من المشهد، ونظرا لأهمية الصورة في مشهد حياتنا اليومية والفكرية والعلمية، سنحاول تقديم مقارنة سيميائية لواحدة من أشهر صور القرن العشرين، إنها الصورة التي هزت العالم، وهز العالم صاحبها:



¹ ينظر: عصر الصورة، شاكرو عبد الحميد، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية، شهرية يصدرها: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 1978م.

² ينظر: سيميائية الصورة "مغامرة في أشهر الإرساليات البصرية في العالم، قدور عبد الله ثاني، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008 م.

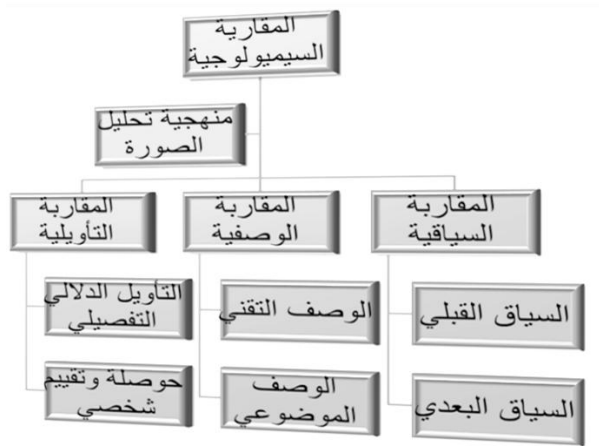
³ ينظر: حياة الصورة وموتها، ريجيسدوبري، ترجمة، فريد الزاهي، إفريقيا الشرق، المغرب، د.ط، 2002م.

⁴ ينظر: البعد الوطني من خلال مظاهر المجتمع الطوطمي ومشاهد الرسوم الصخرية لمنطقة التاسيلي، ناجر إلى المدينة في فترة قبل التاريخ وفجر التاريخ، إبراهيم العيد بشي، دار هومة، الجزائر، ط1، 2014م.

الصورة التي أبهرت العالم لكيفن كارتر

فالصورة التي أبهرت العالم هي موضوع الدراسة، معتمدين في تحليلها على أشهر المقاربات السيميائية في سيميولوجيا الصورة، ونعني بها المقاربة السيميائية للوران جرفيرو في كتابه: "انظر كيف نفهم تحليل الصورة"¹ ومقاربة "بيروتانوكوكيلا" في كتابهما: "دلالة الصورة"²، فمهما تعددت المقاربات والزوايا المنظور إليها في الصورة، يبقى الإحساس بالصورة البنية التحتية لأي مقارنة سيميائية، حيث تتشكل نظرية التلقي والفعل التداولي في حركة تمثل وفهم الصورة سواء باعتبارها علامة أيقونية أو تشكيلية، أو باعتبارها دليلاً أو رمزاً.

وإذاً الصورة نظام لغوي يرقى بارتقاء السياق الذي توضع فيه، اعتمدنا على مدخل كبناء تركيبية دلالي قبل الخوض في مراحل المقاربة السيميائية، لنقدم الصورة كمقاربة متناسقة كلية ترابط أجزائها كما ترابط أجزاء الصورة، فالصورة وحدة كلية متكاملة نقوم بتفكيكها لنصل إلى روحها وعمقها، ومن ثمة إعادة صياغة مدلولها وتصويره من جديد كنسق كلي متكامل، ويمكننا تمثيل أبعاد المقاربة السيميائية المعتمدة في هذه الدراسة وفق المخطط التالي:



المخطط 1: أبعاد المقاربة السيميائية للتحليل الصورة

فماهي تجليات الصورة التي أبهرت العالم وفق أبعاد المقاربة السيميائية؟

¹ ينظر :Laurent greverau ;voir comprendre analyser les images ;paris ;edition ;decouverte :1994.

² ينظر : Bernard cocula :Claude peyroutet :semantique de limage ;opcil.

إن موضوع البحث مقارنة سيميائية للصورة التي أبهرت العالم لكيفن كارتر، والتي نشرت لأول مرة في جريدة نيويورك تايمز الأمريكية في 26 مارس 1993م، ففي مارس 1993 سافر المصور العالمي "كيفن كارتر" إلى جنوب السودان وتحديدًا إلى قرية "أيود" بنوايا توثيق حركة الثوار المحلية، بدأ كارتر يأخذ صور الضحايا الجائعين نتيجة للمجاعة التي ضربت البلاد من قلة الأمطار والجفاف، بينما "سمع صوت نشيج عالي النبرة، ناعم قرب القرية، تأكد أنها لصوت طفلة سودانية ضعيفة البنية تبلغ من العمر ثلاث سنوات فقط، وقد توقفت الطفلة بعد أن أعيهاها الجهد للارتياح، بينما كانت تكافح لتصل إلى أحد مراكز توزيع الغذاء"¹، وبينما الطفلة تزحف، كان النسر يراقبها، منتظرًا موتها ليلتهمها، ملتقطًا المصور المشهد بعدسته المبهرة. وحسه المرهف، إنه المشهد الذي هز العالم، والصورة التي كان عنوانها: الصورة التي أبهرت العالم؛ حيث يقف النسر هادئًا منتظرًا وقوع الفريسة البشرية وهي فتاة سودانية سوداء هزيلة تزحف نحو مخيم الأغذية، مصارعة الجوع في حربها ضد الفناء، مترقبًا النسر سقوطها في صراعه من أجل البقاء، ولأنها منطقة جافة يموت فيها النبات والحيوان والبشر، ولأننا في عصر يباع ويبخس فيه الإنسان والبشر، فقد أصبح الإنسان فريسة للحيوان، فيالها من مفارقة طبيعية عجيبة، لكن لا عجب، فما دام النسر يرى كيف يقتل الإنسان أخاه الإنسان، وكيف يفترس البشر بعضهم بعضًا، وكيف يتوق مصاصو الدماء إلى بحار دم الجنس البشري، فلما لا يفترس النسر الجائع تلك الفريسة التي تنتظر الموت، إنه الصراع من أجل البقاء، الفرق أن النسر يحترم موت الإنسان ليفترس، غير أن الإنسان يفترس من أجل الموت، وأن النسر كغيره من بني جنسه الحيواني لا يفترس إلا عند الجوع ليعيش، غير أن بعض الجنس البشري يعيش ليفترس، إنه جائع للقوة والدم، إنه جائع على الدوام.

فلا عجب حين نتقل من صورة كيفن كارتر سنة 1993، باعتبارها عاكسة للألم الإنساني و منادية من خطر المجاعة في السودان والصومال ومنه في العالم، إلى عالم المجاعة في غابة البشر، وعالم النسر في طغيان الدول العظمى على الدول الصغرى في وقتنا الحالي، إننا كدول عربية تنتهي إلى العالم الثالث في ذات المشهد؛ مشهد الفتاة السودانية المسكينة ومشهد النسر المترقب المترصد لها، إنه ذات النسر وإننا اليوم ذات الطفلة الجائعة النائمة المسكينة، لكن الطفلة وجدت من ينقل صورتها إلى العالم. ووجدت من ينقذها من المجاعة، فهل ستجد الأمة العربية من ينقل صورتها بأمانة، وهل تجد من ينقذها من المجاعة؟ وهل تقبل الأمة العربية أن يلتقط لها الصورة كفتاة هزيلة جائعة، وهل تقبل أن تكون هذه هي صورتها للعالم؟

لما لا فالنسر كان يتربص منذ زمن، وينسج خيوط المجاعة والضعف، مجاعة الإنسان لدم الإنسان، منذ زمن وهو يصنع الحروب لتستقر كائنات بلا هوية تاهت في مناجي الأرض وها هي اليوم تتوه الأمة العربية

¹Macleod.S. (2001, June 24). The Life and Death of Kevin Carter. *TIME*.

داخل نفسها، فلسنا بعيدين عن ذلك المشهد الذي أبهر العالم وهز وجدانه، كما هز وجدان صاحبه الذي تحصل به على جائزة بوليتزر في 23 مايو سنة 1994، ليغادر بعدها هذا العالم منتحرا، تاركا رسالة الوداع قائلا فيها: "أنا مكتئب ... بلا إعانة للطفولة... أنا مطارِد بالذكريات الواضحة لحالات القتل والجثث والغضب والألم.... وأطفال جائعين أو مجروحين، مطارِد من المجائنين التواقين لإطلاق النار من الجلادين القتلة ... ذهبت للانضمام إلى كين إذا حالني الحظ".¹

المقاربة الوصفية:

الوصف التقني: "نوع الصورة، أبعادها، مقاساتها، تاريخها، مرسلها، متلقيها":

هي صورة فوتوغرافية ملونة، ذات بعد إنساني عالٍ، أنتجت عن طريق الكاميرا الرقمية، وهي عبارة عن إطار شكل مربع أفقي، مساحته: "288×300" بيكسل، عرضت في سياق إعلامي وفق بعد سياسي تطغو عليه الإنسانية في مفارقة طبيعية هزت العالم، حيث يصعد الإنسان إلى الفضاء ويغزو القمر، وقد أصبح في ذات الوقت فريسة للحيوان والبشر، التقط هذه الصورة المصور العالمي كيفن كارتر بالسودان يوم 26 مارس سنة 1993م، خلال أزمة المجاعة التي أصابت السودان في خضم قسوة الظروف الطبيعية وقسوة الحرب الأهلية الثانية²، وتم نشر وبث الصورة عن طريق الجريدة العالمية نيويورك تايمز، ومنه بيعت إلى مختلف القنوات التلفزيونية والفضائية، وهي اليوم جزء من الشبكة العنكبوتية باعتبارها من أشهر صور القرن العشرين.

الوصف الموضوعي: "عنوان الصورة، مضمونها":

إنها الصورة التي أبهرت العالم، ذاك عنوانها، مع أن العالم هو ما يبهز الصورة في تلك المفارقة العجيبة بين صعود الإنسان للقمر، وهو في الوقت ذاته فريسة للحيوان والبشر، العالم هو مبهز الصورة في صمته مما يحدث لأطفال السودان من مجاعة وطوفان الدم في أطول حرب أهلية عرفها القرن العشرين، إنها القضية التي هزت كيفن كارتر ليذهب من جنوب إفريقيا إلى جنوب السودان، لايصور المجاعة الطبيعية، بقدر ما راح يصور مجاعة النفس البشرية للإنسانية، إنها الإنسانية فهذه هي القضية، عندما لا يشعر الإنسان بأخيه الإنسان، عندما يقتل ويموت أمام عينيه دون أن يحاول النظر إليه ومساعدته، فهل تراه يستحق أن يكون إنساناً؟!

¹ Macleod.S. (2001, June 24). The Life and Death of Kevin Carter. *TIME*.

² الحرب الأهلية السودانية الثانية هي حرب أهلية بدأت في عام 1983، بدأت بعد 11 عاما من الحرب الأهلية السودانية الأولى بين أعوام 1955 إلى 1972، درات معظمها في الأجزاء الجنوبية من جمهورية السودان في منطقة الحكم الذاتي الذي يعرف بجنوب السودان، وتعتبر إحدى أطول وأعنف الحروب في القرن وراح ضحيتها ما يقارب 1.9 مليون من المدنيين، ونزح أكثر من 4 ملايين منذ بدء الحرب. ويعد عدد الضحايا المدنيين لهذه الحرب أحد أعلى النسب في أي حرب منذ الحرب العالمية الثانية، انتهى الصراع رسميا مع توقيع اتفاق نيفاشا للسلام في كانون الثاني / يناير 2005 واقتسام السلطة والثروة بين حكومة رئيس السودان عمر البشير وبين قائد قوات الحركة الشعبية لتحرير السودان جون قرنق.

إن هذه الصورة ما كانت لتبه العالم، لأنها صورة تعكس مجاعة من ضمن المجاعات، فمنها الآلاف على مدار القرن، إن ما يميزها مشهد النسر وهو ينتظر موت الإنسان لافتراسه، إن عمقها واقع الإنسان باعتباره فريسة للحيوان، مع أن مصدر عمقها الحقيقي هو؛ افتراس الإنسان لأخيه الإنسان، فلولا هذه الحقيقة المرة ما كانت تلك الطفلة الفريسة المرتقبة للنسر الجائع مثلها تماما، الحيوان الهادئ الذي يحترم موت الإنسان ليفترسه، في مقابل افتراس الإنسان لأخيه الإنسان، في مشهد لا يحترم فيه موته بل يصنعه ويتفنن فيه، ما أراد ملتقط الصورة قوله كلنا مسؤولون عن هذه المأساة، كلنا نسور لا ترحم، مع أن النسر ما زال هادئا يتأمل واقع الإنسان والطفلة المسكينة مازالت تزحف، ومجاعة الإنسان للإنسانية ماتزال حاضرة بألف صورة وصورة، لا ينقصها إلا عدسة كارتير حتى تعكس أشكال وألوان النسور والضحايا.

الوصف التكويني "الأسلوبي": الأشكال والألوان:

الأشكال:

إن التكوين الجيد، هو الذي لا يشتت العين، من خلال توازن العلامات التي تحتويها الصور الفوتوغرافية. وتكامل معانيها، حتى تصل إلى المعنى النهائي والمقصود تحقيقه من وراء الرسالة، تحمل الصورة التي أبهرت العالم أربعة مشاهد:

المشهد الأول:

الطفلة السودانية النحيلة السوداء، وقد أصابها الوهن والضعف، ذات عقد في عنقها، وأساور تزين يديها الهزيلتين، وأهم ما يميز مشهدها الزحف وانحناء الرأس وكأنها تصارع النهاية.

المشهد الثاني:

مشهد النسر القناص، الذي ينتظر موت الطفلة بهدوء وراحة، فمشهدا يغري بالنهاية، وأهم ما يميز مشهد النسر الهدوء والثبات، وحدة البصر والتركيز، ليتداخلا المشهدين في مفارقة عجيبة؛ بين ضعف الطفلة وقوة النسر، فالمجاعة تأكل الأخضر واليابس، الإنسان والحيوان، إلا أن الإنسان أوهن ضحية، مطأطأ الرأس، والنسر عالي شامخ الرأس حاد البصر، وكأن الطفلة في هيئتها المنحنية الخاضعة تقول للنسر: "إني هنا أيها النسر، إني هنا أيها الموت إني أنتظر". وكأن النسر في هيئته القوية الشامخة يترقب الطفلة مندهشا هل أنت ضحيتي أم ضحية البشر؟ وهنا يكمن سحر الصورة، فالمصور أحسن التقاطها من زاوية حادة تعكس واقع المواجهة الخلفية بين الطفلة والنسر، والمواجهة المباشرة بين النسر والفتاة، مع مسافة قصيرة

هي المسافة ذاتها بين حياة الإنسان وموته، والمسافة المرئية بين كل مفترس وضحية، إنها القضية ذاتها فالنسر أدرك أنه في نفس الغابة، فلا تفرق غابة الحيوان عن غابة البشر.

المشهد الثالث:

مشهد الأرض الجرداء القاحلة مسرح الحدث، وهي أرض تعكس البيئة الصحراوية الإفريقية، كما يضم هذا المشهد الأكواخ الصفراء المهجورة، وهي أكواخ كانت عامرة بسكانها الذين زحفوا أو أهلكتهم المجاعة، أرض قفار وأكواخ مهجورة موحشة، وطفلة مسكينة هي الشاهدة على المكان والإنسان، هي سفيرة المأساة الإنسانية الحاصلة في جنوب السودان، والمأساة الجارية في الإنسان.

المشهد الرابع:

الخلفية البعيدة، والمتمثلة في الأشجار الخضراء، ومع أن مشهدها في الصورة مشهد ضعيف، بعيد، لكنه أفضى لمحة الحياة في الصورة القاتلة بمشهدها المأساوي، إنها رسالة كيفن كارتير: رسالة الإنسانية في قلب الوحشية، ورسالة الأمل في قلب الموت، إنها الحياة عندما تتنفس، أو هي الحياة عندما تتلفظ أنفاسها الأخيرة فهل من مجيب؟ هذا ما أراد قوله صانع الصورة، الصورة التي أبدع في التقاطها من تلك الزاوية الحادة في ترقب النسر وانهمام الفتاة، إنها البراءة تصارع المجاعة، فهل من مغيث؟ إنها البراءة تصارع وحشية الموت ووحشية الافتراض من نسور الغاب والغياب، غابة البشر، وغياب الإحساس والبصيرة والبصر، في ظل حضور النسر وحده بصره وترقبه في واقع بني البشر.

ويمكننا تقسيم الصورة بخط أفقي واحد يقسمها إلى قسمين: جزء علوي، وجزء سفلي، تجمعهما الأرض الواحدة والمساحة الواحدة والرسالة ذاتها، جزء سفلي تظهر فيه الطفلة المنكسرة الشامخة في صبرها وتشبهها بالحياة، وجزء علوي يظهر فيه النسر الكاسر ووراءه أكواخ صفراء مهجورة تخفي وراءها أشجار خضراء تبعث فينا الأمل، بأن الحياة ما زالت تدب في المكان.

توحي الصورة في بداية الأمر بواقع المجاعة في بيئة صحراوية هي بيئة إفريقية، كما توحي بوحشية هذه المجاعة التي تصل إلى الحد الذي يصبح فيه الإنسان فريسة للحيوان. لتقودك تجليات وأبعاد الصورة إلى النسر الحقيقي، والضحايا التي تفوق تلك الطفلة السودانية، إنه قانون الغاب في ظل غياب الضمير الإنساني.

الألوان:

لقد تحققت في الصورة وحدة الألوان وتدرجها، بين الأسود والرمادي والبني والأصفر، ليلوح الأخضر من بعيد، ويظل الأسود كلون قاتم مسيطرا على المشهد سواد الواقع الذي تعكسه الصورة، في ظل تماوج اللون البني والرمادي مع اللون الأصفر وهو لون حاد يعكس حدة الطبيعة وقسوة البيئة التي تكاد تفتقرها المجاعة، فرغم جمال اللون الأصفر في اللوحات الزيتية ودفته، إلا أنه في هذه الصورة حاد التشكيل بارد المدلول، برودة الإحساس الذي يحيط بهذا العالم الذي يفترس بعضه بعضا، ليظل اللون الأخضر بعيدا ينتظر من يوسع مساحته في قلب الواقع حتى ينعكس في واقع الصورة.

المقاربة السياقية:

السياق القبلي "النسق من الأعلى": المرسل، الأسباب، الأهداف:

المرسل والأسباب:

إن ملتقط الصورة كيفن كارتير؛ مصور فوتوغرافي عالمي، ولد سنة 1960 بجنوب إفريقيا، من أبوين بريطانيين، التحق بالجيش سنة 1980م، وبعدها فر من الجيش ليعمل كمصور هاوي بميدان الرياضية، إلى مصور محترف، إلى ملتقط الصورة التي أبهرت العالم بجنوب السودان، سنة 1993م، لينتحر بعدما نال عليها جائزة البوليتز في شهر ماي سنة 1994م.

لم يكن مجرد مصور، ولم تكن هذه الصورة مجرد صورة، فلقد كان كارتير صاحب قضية، قضيته الكبرى مأساة الإنسان والبحث عن الإنسانية، وقضيته الثانية العنصرية بشق أشكالها، على رأسها عنصرية الإنسان الأبيض ضد الإنسان الأسود، إنه مع قضية الجنس الأسود في كل مكان خاصة في القارة السمراء، فلقد عاش في بيئة تقوم قوانينها على التمييز العنصري، حيث لا يسمح لأي أسود بالدخول إلى أحياء البيض إلا ببطاقة مرور، ويقال أن هروبه من الجيش كان نتيجة دفاعه عن السود، إذ تلقى ضرباً مبرحاً من زملائه في الجيش، كان محباً للسود إلى درجة لقب فيها "بمحب الزنوج"، وما كان ذلك إلا للتربية الإنسانية التي تلقاها من والديه الذين كانا من أعداء التمييز العنصري.

مصور ثائر ومغامر، ولأن قضيته الإنسان، والجنس الأسود بالذات، راح مغامراً في أرض تأكلها المجاعة وتكاد تفترسها الحروب، إنه جنوب السودان، الذي طالت حربه الأهلية الثانية¹، وطالت معاناة أهله، وطال صمت المجتمع الدولي، حمل كارتير رفقة رفاقه سلاح كل مصور؛ العدسة الشاهدة العصرية على التاريخ، التي تصنع الصورة أو ما يعرف بالذاكرة المرئية للشعوب، غير أن عدسة كارتير صنعت الصورة كشاهد على الضمير الإنساني الذي يذوب في صمت الشعوب، ومن أجل قضيته اعتقل هو وأصدقائه، لكنه أبى إلا أن يواصل المسير، لثقلته عدسته زحف تلك الفتاة السودانية الضعيفة المهزومة، انهزام الإنسانية في عالم الحروب الدموي، فأسباب التقاطه للصورة هو إيمانه بالقضية الإنسانية، إذ جاء رفقة زملائه الذين يشبهونه فعرفوا بحب المغامرة، وتصوير مظاهر العنف، وخدمة القضايا الإنسانية، و جنوب السودان في تلك الفترة كان مسرحاً للمجاعة ومسرحاً للعنف والدم، ومسرحاً لموت الطفولة ووجع الإنسانية.

ويروي صديق لكيفن رافقه في الرحلة إلى جنوب السودان وهو المصور "جاوا سيلفا" في مقابلة مع الكاتب الياباني "إكيوفوجيوارا"، القصة لما عرف حينها من جدل حول الصورة فيقول "رافقنا أنا وكيفن وفدا من الأمم المتحدة لتوزيع الغذاء في جنوب السودان، وبعد أن هبطت الطائرة أخبرونا بأن موعد الإقلاع سيكون

¹ ينظر: السودان "حروب الموارد والهوية"، محمد سليمان محمد، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، السودان، ط2، 2006. هذا الكتاب محاولة رائدة في علم "الإيكولوجيا السياسي"، يدعونا فيها المؤلف إلى إعادة النظر والتمعن منشأ الحروب الأهلية في السودان ومتغيراتها التي تفرض إطاراً بديلاً، لمحاولات الحلول العادية والشاملة.

بعد 30 دقيقة فقط وبدأنا نتجول في أطراف المخيم لالتقاط الصور فذهبت أنا لأبحث عن المتمردين وأصورهم، بينما لم يبتعد كيفن سوى خطوات عن الطائرة. ويكمل سيلفا الرواية بقوله: "أصابته الصدمة كيفن فهي التجربة الأولى في حياته التي يرى فيها المجاعة وبدأ يلتقط الصور للأطفال الذين أنهمكهم التضجورجوعا وفعلت مثل كيفن فالتقطت مجموعة صور للأطفال باكين من الجوع، يجلسون على الأرض بعد أن تركهم آبائهم وأمهاتهم وحيدين لفترة قصيرة لأنهم ذهبوا للطائرة للحصول على الغذاء وهذا هو وضع الفتاة في الصورة كما التقطها كيفن، فالنسر هبط خلفها وحتى يتمكن كيفن من جمع الفتاة والنسر معا داخل العدسة بوضوح، فقد تحرك ببطء ودون جلبة حتى لا يهرب الطائر، والتقط المشهد من مسافة لا تتجاوز عشرة أمتار تقريبا". ويختم: "التقط كيفن مجموعة صور وطار النسر بعيدا..".

الأهداف:

الهدف كان نصرة الإنسان، والبحث عن الإنسان داخل كل واحد منا، إن ملتقطها يدرك تماما أهمية الصورة في عالم لم يعد يفهم إلا من خلال الصورة بأنواعها المتحركة والثابتة، ولأنه يعي أبعاد المشهد، وأبعاد البشر في صناعة العالم كصورة، تفنن في تشكيل أبعادها، مركزا على الفتاة بنفس تركيزه على النسر، مسلطا الضوء على الزاوية الحادة التي يتقرب فيها النسر الفتاة السودانية الصغيرة، لتكون أمام شبحين يكادان يفترسانها شبح المجاعة، وشبح النسر المترقب، لقد نقل المصور بعدسته الماهرة لنا المشهد متحركا، مع أن الصورة كانت ثابتة، إن سر الصورة في تلك المواجهة بين الفتاة والنسر، وسرها الأعظم في مواجهة الفتاة للعالم، لقد كانت الصورة ثابتة، ساكنة، لكنها حية ناطقة نابضة، أراد صاحبها من خلال مشهدها الصادم تحريك العالم، وتحريك الإنسانية.

كما لا يقف سحر الصورة في نقل المشهد الصادم بين النسر والفتاة المسكينة. نقصد بين الفتاة المسكينة والعالم. إنما كذلك في اللون الأخضر البعيد، فمع أن الغابة كانت كثيفة بالأشجار غير أن ملتقطها لم ينقل منها إلا خيالا طفيفا، فلو أعطى للأشجار مساحة أكبر لفقدت الصورة جوهر دلالتها العاكسة لواقع الموت والألم، فكانت مساحة الأرض القاحلة ودوران الموت الغالب فيها أكثر بكثير من مساحة الأشجار واللون الأخضر، وفي هذا دلالة قوية، ومع أن المصور كان بإمكانه إلغاء خلفية الأشجار الخضراء البعيدة، إلا أن نراها جزءا من الصورة. وما ذلك إلا لأنه أراد توجيه رسالة للعالم، مفادها أن الأرض والإنسان في جنوب السودان، يختنقان ويحتضران، إنها أرض تموت، إنها بحاجة ماسة إلى من يعيد إليها الحياة، وليس فقط جنوب السودان بل كل أرض مشابهة، وكل فتاة ومأساة مشابهة، فهي بالنسبة إليه قضية الإنسان لا مجرد قضية جنوب السودان، ليبقى مشهد الطفلة السودانية شاهدا على العصر وعلى ظلم الإنسان.

السياق البعدي: النسق من الأسفل:

"البث، التأثير":

البث:

تم بث الصورة أثناء التقاطها، إذ حصلت جريدة نيويورك تايمز الأمريكية على حقوق النشر والبيع، ومن ثم توزيعها على مختلف القنوات الإعلامية وقتها، من جرائد وصحف وقنوات تلفزيونية أرضية وفضائية، إلى جانب مجموعة من الصور المؤثرة لكيفن كارتر في جنوب السودان.

التأثير:

لاقت هذه الصورة رواجاً كبيراً منقطع النظير، وانتشرت في كامل أصقاع العالم، وهي متوفرة الآن في الشبكة العنكبوتية، نقلت للرأي العالمي معاناة قرية أيود في جنوب السودان، هذا وقت التقاطها، أما بعد انتحار صاحبها، فقد أصبحت أكثر شهرة، خاصة وأن انتحاره كان بعد ثلاثة أشهر من فوزه بجائزة البوليتزر على تلك الصورة سنة 1994م. حيث سميت الصورة بعد موته: الصورة التي قتلت كيفن كارتر، مع أن انتحاره كان بسبب معاناته من كل ما يراه في العالم، فلم يترك الأسئلة حول موته في تلك الرسالة الحزينة التي اعترف فيها بعدم قدرته على مواصلة العيش في هذا العالم، فمعاناته مع واقع صوره هو سبب انتحاره لا صوره، وهو واقع مؤلم حزين، فلم يكن واقع صوره واقع عرض الأزياء والجمال، بل عرض مآسي الإنسان، والبحث عن جمال واحد؛ إنه جمال الإنسانية.

ويمكننا تقسيم تأثير الصورة التي أبهرت العالم إلى قسمين: أولاً: تأثيرها العالمي؛ حيث هزت العالم وجدانياً، فراحت المساعدات الإنسانية تتضاعف لنصرة جنوب السودان من المجاعة، ومن عنف الحرب الأهلية، كما هزت العالم إعلامياً فكانت حديث الصحف والمجلات والندوات والمقابلات التلفزيونية عبر الأقمار الصناعية.

ثانياً: تأثيرها على صاحبها، فقد كان تأثيراً إيجابياً، إذ أصبح كارتر مصوراً في جريدة نيويورك تايمز، وانتقل إلى العمل في نيويورك، وكان سعيداً بهذه القفزة النوعية في حياته المهنية، غير أن قضيته الإنسانية كانت همه، ومن قوة البشاعة والقسوة الموجودة في العالم قرر أن يرحل، لا لأن الصورة التي التقطها وهزت العالم هي السبب في رحيله، بل مأساة الإنسان في كل مكان، وشعوره بأن عدسته لم تعد بإمكانها أن تلتقط أكثر، وقلبه وعقله لم يعدا يتحملان ما يجري في العالم، وكل المهدئات التي كان يتناولها لم تعد كافية لتخدير الألم، وتخدير المخ ليقاوم، لقد انتهى مفعول كل ما هو سلمي وإيجابي عنده، وشعر أن واجبه نحو قضايا الإنسان أكثر من التقاط صورة، وليس هناك أبلغ من كلماته التي ودعنا بها: "أنا مكتئب ... بلا إغانة للطفولة... أنا مطارّد بالذكريات الواضحة لحالات القتل والجثث والغضب والألم.... وأطفال جائعين أو مجروحين، مطارّد من المجانين التواقين لإطلاق النار من الجلادين القتلة ... ذهبت للانضمام إلى كين إذا حالفتي الحظ."¹

¹Macleod.S. (2001, June 24). The Life and Death of Kevin Carter. *TIME*.

إن هذه الرسالة تعكس صدق تعايش كين مع الواقع، فالسر الحقيقي في نجاح صورته وتأثيره على العالم نابع من صدق تفاعله مع القضايا الإنسانية المؤمن بها والمدافع عنها، إنه سحر ينساب من وجدانه وقلبه وفكره ليتسرب إلى عدسته ومنه ينعكس على صورته، إنه صدق فنان، ونبض إنسان صادق.

المقاربة التأويلية" الدلالية:

"دلالة العلامات الأيقونية والتشكيلية، المعنى التقريري والمعنى التضميني، بلاغة الصورة، البعد الثقافي والإيديولوجي:"

إن هوية هذه الرسالة كما أوضحنا سابقا، هوية فوتوغرافية ملونة، ذات بعد إنساني عالمي، لصاحبها كيفن كارتر، صاحب نصرة القضايا الإنسانية، ونصرة الجنس الأسود في العالم وفي القارة السوداء على وجه الخصوص، صورة أبهرت العالم، صورة طفلة سودانية هي فريسة للنسر الكاسر وللإنسان القاصر، ومع أن المشهد بطلته طفلة منكسرة، لكن المشهد يقودنا نحو الإنسان أكثر من الطفولة، وكأن تلك الطفلة في انكسارها كبيرة، وفي انحنائها شامخة، إنها تقاوم، إنها تصارع الموت وتتحداه، إنها تقهر قسوة الطبيعة، وقسوة البشر، طفلة تقول: "أنا الكبيرة في صمتي، أنا القوية في انحنائي"، ليقودك مشهد البطل الثاني في الصورة ونعني به النسر الكاسر إلى شعور غريب، صحيح هو جائع ومنظر الطفلة يغري بفريسة جديدة، إلا أن هدوءه وثباته وتأمله يعكس لك تأمل مشهد غريب عليه إنه مشهد بشري منحني، فكيف للبشر أن ينحني، وكيف لهذه الطفلة أن تترك وحيدة، حتى تكون فريسة؟ وكأن تلك الصورة تختزل العالم بأسره، تختزل واقع الإنسان والحيوان، إنه قانون واحد، فكلنا ضحايا وكلنا كواسر، والبقاء للأقوى، ومع ذلك الشعور الغريب؛ شعور التربص وشعور الدهشة والتأمل لذلك الحيوان الكاسر، تظل الزاوية الحادة بين الطفلة والنسر، أكثر ما يلفتك في الصورة، وتظل المسافة والمواجهة تروي قصة هذا العالم من البداية إلى النهاية، إنها قصة الوجود والعدم، قصة القوي والضعيف، قصة البقاء والفناء، قصة الوحشية والإنسانية، قصة أن تكون أولا تكون.

وإذا كانت الصور الحجرية بنقوشها ومجسماتها ومنحوتاتها تعكس مواجهة الإنسان للحيوان، واعتماده مادة للعيش والحياة، واتخاذها رمزا للعالم الميتافيزيقي، فإن علاقة صورة القرن العشرين بكل تقنياتها وجمالياتها تعكس لنا للأسف كيف يكون الإنسان فريسة للحيوان، وتصور لنا مشهدا حيا يتأمل فيه الحيوان واقع الإنسان المتحضر، هذا الإنسان الذي يريد أن يطير ويحلق كالنسر، يترك نفسه يحترق في الأرض، فمهما ارتقى الإنسان ووصل إلى القمر، يراه النسر الكاسر يقترب أكثر من الأرض، وكأنه لم يحلق ولم يرتق ولم يصل إلى القمر، إنه نفس القانون قانون الغاب، إن النسر في ذلك المشهد وكأنه يقول: يا ترى ما الفرق بيننا وبين البشر؟

صورة أبهرت العالم وحركته، لا من عدم، إنها صورة صادمة تهزم كل إنسان فينا من الداخل، إنها أقوى صورة تاريخية للمجاعة، لقد أوصلنا كارتر فيها إلى المنتهى، وانغلقت سيرورة الفكرة، وتعطل منطق التفاهة واللامبالاة، صورة تجذبك تكلمك تواجهك تهزمك وأنت قابع في مكانك، فإذا كنت بعيدا عن المكان، فقد نقلت إليك المكان، وإذا لم تكن ابن الزمان، فلقد أرخت لك الزمان، وإن كان بعدها الحقيقي لا في الزمان ولا في المكان بل في الإنسان الذي فيك، ذاك الذي لا يحده مكان ولا يوطره زمان.

إن جمال وعمق الصورة يفوق حدود جنوب السودان كمكان. وحدود القرن العشرين كزمان. وحدود الطفلة المنكسرة الشامخة، إنها قضية كل إنسان، إن تلك الطفلة سفيرة لكل مأساة مشابهة، فالغرب أنه وبعد مرور أكثر من عشرين سنة من ميلاد الصورة، والتقاط عدسة الكاميرا لآلاف المآسي والأطفال الجائعين، تظل هذه الصورة خير ممثل، وتظل تلك الطفلة خير سفير، لقد تحولت اليوم وبعد أكثر من عشرين سنة إلى الصورة الرمز.

ومن أوجه العمق فيها أنها لا ترمز فقط لواقع أبطال الصورة مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم، وحروبهم، وأسباب مجاعاتهم، بل إنها تعكس الخلفية: إنها خلفية العالم الصامت الذي يقف ساكنا أمام مثل تلك القضايا، صحيح أنه ليس جزءا من الصورة، لكن الصورة فضحته حتى كدت تراه، إنه الضمير الإنساني الغائب في الواقع، الحاضر حضور الغياب في الصورة، فلو كان الضمير الإنساني يتحرك ويقوم بدوره ما كانت تلك المآسي أو على الأقل ما كانت بتلك الحدة، ومنه ما كانت لتكون تلك الصورة بكل تلك القسوة الموجودة فيها. إن الضمير الإنساني هو ما كان كيفن يحاول الوصول إليه ليلتقط له الصورة، بل إنه في تلك المفارقة الطبيعية العجيبة والمواجهة الصامتة بين الطفلة والنسر، نراه يلتقط للضمير الإنساني الغائب ألف صورة وصورة.

لقد تفوق ملتقط الصورة في رصد المشهد، وبث رسائله التي يؤمن بها، وكان للصورة تأثير كبير في النفوس، وانعكاس إيجابي على واقع أهل قرية أيود، واستطاع ملتقطها إظهار العناصر التكوينية والأحجام والألوان، بما يخدم الهدف ويصدم العالم.

إن الصورة قبل أن تعكس الصراع الطبقي الموجود بين عالم أول وعالم ثان وعالم ثالث، ومنه عوالم تعيش الرقي والأمان، وعالم يعاني الموت والتجوع ويغرق في الدم، فإنها توحى صراع الإنسان من أجل الوجود، إن تلك الطفلة ضحية مجتمعها الغارق في حرب أهلية، وإن كانت أغلب الحروب المشابهة صناعة صهيو أمريكية، لكن ضمير بني جنسها أولى برحمتها والرافة بها، إنه الصراع نحو السلطة والوجود، صراع السياسة والهمجية.

إن العمق الذي تنقله الصورة، يجعلنا نسمو عن تفسير مدلول الصورة في الصراع الدرامي بين الدول الكبرى والصغرى، إنها مأساة إنسان في مجاعة تأكل الأخضر واليابس، وحرب دموية زادت من وحشية المجاعة في جنوب السودان، لقد استطاعت عدسة كيفن كارترا أن توحد العالم حولها، ليس بدافع قضية جنوب السودان، بل بدافع الإنسانية، والضمير الإنساني، ذلك هو العمق الحقيقي للصورة، ثم دع عقلك يبحر بك في أي رمزية، فإن ذلك من جماليات وتجليات الصورة، فقد تمثل لك الصورة تصويرا حيا لواقع الأمة العربية في ظل الغزو الفكري والنفسي والعسكري والسياسي التي تتعرض إليه، إن الأمة العربية في وهنها وضعفها تشبه تماما ضعف تلك الفتاة وانكسارها، مع فارق كبير، أن تلك الطفلة قوية في صمودها وتمسكها بالحياة، وخرجت زاحفة لتصل إلى الحياة، لكن الأمة العربية في صمتها وضعفها تزحف نحو موتها. وقد ترمز لك الصورة إلى واقع الوجود الإنساني منذ هبوطه إلى الأرض إلى صعوده إلى القمر، صراع البقاء والفناء،

صراع السلطة والوجود، صراع تحدي الإنسان للطبيعة من أجل الحياة، فضاءات دلالية متعددة وممتدة امتداد التلقي والتأويل وامتداد الإبحار في تجليات الصورة لكل واحد منا.

غير أن أهم ما شدنا في الصورة اللون الأخضر البعيد الباعث للأمل، والعقد الموجود في عنق الطفلة والأساور، فمن جهة تعكس الحياة والجمال والفرحة، ومن جهة تعكس القيود، في هيئة منكسرة شامخة تتحدى الموت، إنه عقد وأساور بيضاء في جلد أسود، إنها الحياة في قلب الموت، والجمال في ظل الوحشية، وإذا كان العقد رمزا للقيود ففي تحدي الطفلة وزحفها نحو مخيم الأغذية كسر لجميع القيود، وفي تحديها للموت تحدٍ للعالم الظالم، عالم مجتمعا الذي دخل في حروب أهلية دامية هي من أطول الحروب الأهلية في القرن العشرين، والعالم الذي يخال نفسه عالما متطورا ومتحضرا، فإذا كانت الحضارة تبنى بالقيم المادية والتقنية في مقابل القيم الروحية، فإنها لن تدوم إلا بالقيم الروحية والإنسانية، فعندما تغيب الإنسانية في الإنسان فأى حضارة تبقى وأي حضارة تكون؟

حوصلة وتقييم شخصي:

هي صورة هزت العالم، تحمل من القيم الإنسانية ما تحمل، بل نراها قد تحولت إلى الصورة الرمز في القضايا المساوية المشابهة، إنها تنعي في متلقها الإحساس، وتعلي فيه درجة الإنسانية، لكن ترى كم صورة نحتاج من عدسة كيفن كارتير حتى يتأثر العالم بما يراه من آلاف الصور من قضايا العالم على رأسها قضايا العالم العربي والإسلامي المستهدف من قوى الصهيو أمريكية؟! فرغم تأثير الصورة في العالم، مازال الواقع كما هو، وما زال العالم بحاجة ماسة إلى من يلتقط له الصورة الأعمق لضميره الإنساني المهزوم، ولنترك صور كيفن كارتير تتحدث، وتواجه الواقع، فالقضية مازالت هي ذاتها، قضية الإنسانية والضمير الإنساني، فهل للطفلة أن تصل في زحفها للنهاية أم النهاية هي التي تراها ستزحف نحوها؟ هل سيظل النسر حائرا إلى ما وصل إليه البشر؟ هل سينتظر كثيرا أم تراه يحلق بعيدا تاركا الطفلة للكواسر البشرية فهي أولى بفرائسها، وهي الأقوى في غابتها؟ ليعود هو لغابته لأنها الأجمل والأرحم والأكثر نظاما وانضباطا!

الخاتمة:

كيفن كوتر: الإنسان رسالة

